الفصل الأول

البطوليّ في أساطير الخلق والتكوين

تمهيد:

الحديث عن البطوليّ في أساطير الخلق والتكوين لا بدّ أن يُسبَق بالحديث عن مفهوم الأسطورة ونشأتها، وسماتها، بما يساعد على تحديد الطريقة التي ننظر بواسطتها إلى مفهوم البطوليّ في أساطير الخلق والتكوين:

1- مفهوم الأسطورة:

حظي مفهوم الأسطورة باهتمام عدد كبير من العلماء، والباحثين، والمتخصّصين، غير أنّهم لم يتفقوا على تعريف واحد، نظراً إلى تنوَع مدارسهم، ومناهجهم، واختلاف وجهات نظرهم إلى الأسطورة، إذ إنّ الأسطورة واقعة ثقافيّة مركّبة شديدة التعقيد، يمكن قراءتها، وتحليلها، وتفسير رموزها من منظورات متعدّدة يكمل بعضها بعضاً. وفيما يأتي عرض لبعض من هذه المنظورات التي اخترناها:

أ) يرى "كامبل" الأسطورة هي مفتاح القوى الروحية للإنسان."[1]

ب) ويعرّفها "ي م. ف ألبيديل" بقوله: "الأسطورة هي الحكاية عن الأزمنة التي كانت قبل بدء البدايات كلّها، وعن الأحداث التي مضى على حدوثها زمن غير معروف، وعن الآلهة، والأبطال، وظهور السماء، والبشر، والوحوش، والنباتات، والطيور، والحياة، والموت، والأسطورة أيضاً الحكمة الشعبية، وفلسفة الشعب، وهي أقدم صيغة من صيغ الانفعال، والإدراك، وتأويل العالم".[2]

ج) ويرى "مرسيا إلياد" أنّ "الأسطورة هي التي تروي تاريخاً مقدساً"[3].

١- جوزيف كامبل، قوة الأسطورة، تر: حسن صقر وميساء صقر، ص: 23، ط1، دار الكلمة للنشر والتوزيع، دمشق، 1999.

٢- م. ف ألبيديل، سحر الأساطير، تر: حسان ميخائيل إسحق، ص: 220، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2005.

٣- مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، ط1، دار كنعان، ص: 10، دمشق، 1991.

د) ويؤكد الباحث "شتراوس"، أنّ "الأسطورة نموذج واحد مكرّر لمنطق الفكر البشري".[١]

هـ) ويعتبر "كاسيرر"، الأسطورة "وحدة الشكل البنائيّ للروح الإنسانيّة" ويرى أنّه لا ينازع أحد في كون طابع الأسطورة اجتماعيّا.[٢]

و) ويحدّد "تشاوديك"، الأسطورة على أنّها "المرحلة الأخيرة لا الأولى من صنع البطل".[٣]

ز) ويعني "فراي" بالأسطورة في المقام الأول "نوعاً معيّناً من القصّة، إنّها قصّة بعض شخصياتها آلهة، أو مخلوقات أخرى، أكثر قدرة من البشر، ومن النادر وجودها في تاريخ الأحداث الماضية".[٤]

ح) أمّا فراس السواح، فينظر إلى الأسطورة على أنها "حكاية تقليديّة تؤدي الكائنات الماورائيّة أدوارها الرئيسة؟"[٥] وتعريفه يشبه إلى حد كبير تعريف خزعل الماجدي الذي يقول "إنّها قصّة تقليدية ثابتة نسبياً، مقدّسة ومربوطة بنظام ديني معيّن، ومتناقلة بين الأجيال، ولا تشير إلى زمن محدد، بل إلى حقيقة أزلية عبر حدث جرى، وهي ذات موضوعات شموليّة كبرى محورها الآلهة، ولا مؤلّف لها، بل هي نتاج خيال جماعي."[٦]

ط) وقد صرخ "سانت أوغسطين" يوماً، بحسب (راثفين) حين سئل عن تعريفه للأسطورة قائلاً: "إنني أعرف جيداً ما هي بشرط ألا يسألني أحد عنها، ولكن إذا ما سئلت وأردت الجواب فسوف يعتريني التلكؤ."[٧]

ي) وقدّم الباحث "لوسيف" تعريفاً لافتا للنظر حين قال: "الأسطورة هي الواقع الأكثر تحديداً، والأكثر كثافة، والأكثر توتّراً.. وهي ليست بدعة، ولا وهماً، ولا تهيّؤات من صنع الخيال"[٨].

١- نبيلة إبراهيم، الأسطورة، ص: 44، وزارة الثقافة العراقية، سلسلة الموسوعة الصغيرة، رقم 54، بغداد، 1979.

٢- ينظر: مرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدي، تر: نهاد خياطة، ص: 85. و: ط1، دار طلاس، دمشق، 1987.

٣- نورثرب. فراي، الماهية والخرافة، تر: هيفاء هاشم، ص: 49، ط1، وزارة الثقافة، دمشق،1992.

٤- المصدر السابق، ص: 49.

٥- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص: 8-12، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1997.

٦- خزعل الماجدي، بخور الآلهة، ص: 58، ط1، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998.

٧- ك. ك. رائفين، الأسطورة، تر: جعفر صادق الخليلي، ص: 9، موسوعة زدني علماً، منشورات عويدات، بيروت، بلا ت.

٨- ألكيس لوسيف، فلسفة الأسطورة، ص: 41-42، ط1، تر: منذر حلوم، دار الحوار، اللاذقية، 2005.

ك) وقد نظر "راثفين" إلى الأسطورة على أنّها "حكمة القدماء الخفية، متنكرة في رموز فنية تدهشنا."[1] ثمّ قال: "ونحن لا نستطيع أن نقف أمامها إلا بإجلال، لأنّها تقدم لنا فهماً للحياة، لذلك نهتم بها، لا كما قال فولتير: "إنما يقوم بدراسة الأساطير الحمقى."[2]

تشير جملة التعاريف السابقة إلى أنّ الأسطورة: واقعة فنيّة ثقافيّة تشكّلت بصورة محكمة مدهشة، تعكس الواقع الاجتماعي المعاش، وبعض أحداثه التاريخيّة كانت مدركة، بصرف النظر عن قيود حدود الزمان والمكان، ورموزه الدينيّة، ومفاهيم معتقداته الكليّة، وصيغ شعره، وزجله، وقصصه، وحكاياته، وطرائق إنشادها، وأنماط عاداته وتقاليده، وأحلام أهله في تسيير أحداث الحياة وظروفها.. وأساليب تبادل ذلك كلّه، وتناقله عبر الأجيال.

2- نشأة الأسطورة:

نشأت الأسطورة استجابة لحاجات مادية، وموضوعية، وطبيعية ملحّة،[3] فقد حدث "أن رأى الإنسان كيف يمارس الأثر في الطبيعة، عبر إرادته، وعمل يده، فاعتقد أنّ وراء كلّ مظهر من مظاهر الكون، وحركة من حركات الطبيعة روحاً إلهيّة فاعلة."[4]

و "الأسطورة، على الرغم من أنّها ليست سوى صيغة مجازية لقوى روحية كامنة في الوجود البشري، إلا أنّها تبعث الحياة فينا كما في العالم."[5] من هنا تأتي مقدرتها الفائقة على كشف مكنونات النفس البشريّة، والتعبير عن الأفكار المجردة، وهي في الحقيقة رؤيا أخرى للواقع، بل هي في أحيان كثيرة تتجاوز الواقع لتصنع واقعاً جديداً، ولذا فهي عبارة عن رؤيا إنسانية للكون ذاته، والأسطورة في حد ذاتها تحمل زخماً وانفعالاً يجعلنا نشعر بالدهشة القادمة من تلك القدرة الهائلة على تجسيد الأفكار بطريقة فنيّة. لقد أنتج الإنسان الأسطورة في مرحلة الوعي، وهي مرحلة متطوّرة من مراحل تطوّر الفكر الإنساني الذي لم يكن منتجاً للأساطير فحسب، ولكنّه متفاعل معها، ومقدّس لها أيضاً.

١- راثفين الأسطورة، ص: 27-28.
٢- المصدر السابق، ص: 12.
٣- ينظر: سيد القمني، الأسطورة والتراث، ص: 25، ط1، سينا للتراث، القاهرة، 1993.
٤- فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص: 1.
٥- جوزيف كامبل "قوة الأسطورة"، ص: 48.

3- سمات الأسطورة:

اتسمت الأسطورة بسمات كثيرة.. لعلّ من أهمها:

أ) وضوح الرؤيا: تتّسم معظم أساطير الشرق القديم بوضوح الرؤيا، فمن بداية النصّ نستطيع أن نلتمس النهاية التي سيؤول إليها، بل إن أكثر أساطير بلاد الرافدين كانت تستبق الحدث بالوصول إلى النتيجة، وهذا ما نراه بشكل واضح في أسطورة الخلق، حين عبرت في مطلعها عن الهدوء الذي كان يعم الكون حين كانت الآلهة وحدها، ولم تكن قد خلقت الإنسان، ولكن الولادة والخلق حصلا فيما بعد:

أثاروا قلق تيامات
وحين أحدثوا الجلبة
وجعلوا داخل
تيامات يضطرب
أزعجوا بألعابهم
قلب المسكن الإلهيّ[1]

إنّ اضطراباً ما قد حصل وهذا الاضطراب أحدث خللاً في النظام الذي كان سائداً، وعلى الآلهة أن تعيد الأمور إلى ما كانت عليه، وهذا موقف يجعل المتلقي قادراً على التوقّع، ويتصور أنّ الآلهة ستقوم بأمر ما لتحقيق رغباتها:

فتح أبسو فمه وقال
رفع صوته
وقال لتيامات
تصرّفاتهم تزعجني
أنا لا أرتاح نهاراً
وفي الليل لا أنام
أريد إفناءهم
وإلغاء نشاطاتهم
لكي يستعاد الهدوء
ولكي نتمكّن من النوم[2]

وهنا يقع الخلاف بين الآلهة، كلّ يريد حسم الأمر على طريقته، وإنّ هذا الخلاف الواقع بين قوى النظام، وقوى الفوضى جعل مؤلّف النصّ يقف إلى جانب قوى النظام، ممثلة بالإله "مردوخ"، القادر على تنظيم الكون، وإعادة الأمور إلى

١- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 118، ج2.
٢- المصدر السابق، ص: 120.

ما كانت عليه، ومن هنا كان تجسيد النصّ للصراع أمراً ضروريّاً، كي يؤكّد لنا أنّ النهاية الحتميّة لأيّ صراع بين قوّتين متناقضتين سينتهي بانتصار قوّة الخير والنظام، إذ لا يمكن ترك الفوضى تسود، لأنّها لا يمكن أن تدع الحياة تستمر وتزدهر.

هذه هي الحتميّة الأكثر أهميّة التي حاولت الأساطير تأكيدها، الحتميّة التي مفادها أنّ آلهة الخير قادرة على إعادة كلّ شيء إلى وضعه الطبيعي.[1] حيث: "إنّ أفكار بلاد الرافدين في أرقى درجاتها لم تكن فلسفة، لأنّ موضوع تلك الأفكار لم يكن الكينونة بل الحياة، وليست الحقيقة بل الوجود."[2]

ب) طغيان دور الآلهة: تشكّل الآلهة المحور الأهمّ في الأساطير؛ فشخصيّات النصّ الرئيسة من الآلهة، يكاد دورها أن يكون مطلقاً وطاغياً على دور الإنسان صاحب الدور الثانويّ في أساطير الشرق القديم، فهو لا يمتلك القدرة على التأثير في مجرى الأحداث، لأنّه لا يمتلك القدرة التي تمتلكها الآلهة التي بيدها كلّ شيء، وهي التي تقرّر مصيره:

سوف أعمد إلى تكثيف دم
وتشكيل هيكل
وبذلك سوف أحدث نموذجاً أوليّاً
سوف تطلق عليه تسمية بشريّة
أريد خلقه، لكي تفرض عليه سحرة الآلهة
ولكي يتوقّفوا هم عن العمل للراحة.[3]

الآلهة هي صاحبة القرار، تخلق، وتدمر، وتقرّر المصير، والإنسان يقف مكتوف الأيدي؛ فالأعمال التي تتطّلب مقدرة وقوّة، تقوم بها الآلهة التي تشكّل الشخصيّة الرئيسة في الأسطورة، أمّا الشخصيّات الثانويّة (الإنسانيّة)، فلا تمتلك أيّ مقدرة على التأثير في مجرى الأحداث.

ج) التكثيف الرمزي: اعتمدت أساطير بلاد الرافدين بشكل كثيف على الرموز، ذلك أنّ الرمز يحمل طاقة تخيّليّة عظيمة، هي الطاقة التي تجعل المتلقّي يمتلك القدرة على استشراف المستقبل، فبواسطة الرمز يمكن للبطل أن يعبّر عمّا يختلج داخل الذات الإنسانيّة. إنّ استخدام الرموز هو الذي يجعل النصّ أعظم تأثيراً في المتلقّي، حين يثير في ذهنه كلّ هذه الخيالات التي تدفعه إلى رسم

١- عبد الرحمن العابو، التراجيدي في أساطير الشرق القديم، ص: 39-40.
٢- كلشكوف، الحياة الروحية في بابل، تر: عدنان عاكف الحموي، ص: 122، ط1، دار المدى، دمشق، 1995.
٣- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 186، ج2.

صورة لآفاق أكثر جمالاً وجلالاً، وحين تجسّد كل آلهة رمزاً خاصاً بها، فـ "مردوخ" رمز للقوة والنظام، و "إيّا" رمز للحكمة، و "تيامات" رمز للشر، و "عشتار" رمز للشبق.[1] يكوَن مجموع هذه الرموز مجموعة القيم الجماليّة الإنسانيّة التي عرفها الإنسان، وحاول تطويرها، وإلغاء بعضها تبعاً لرغباته وحاجاته. لقد استطاعت كثافة الرموز الموجودة في أساطير الشرق القديم أن تمدّ الإنسان بطاقة كبيرة، ومنحته القدرة على العيش بسلام مع كلّ ما يدور حوله، لذا كان حقاً قول "باتريس دولاباتور": إن الشعب الذي لا أساطير له يموت من البرد.

أوّلاً: تحديد الأساطير المدروسة:

تشكّل أساطير الخلق والتكوين المراحل الأولى للنصوص الفنيّة الأدبيّة التي وصلت إلينا، وهي مبنيّة على فكرة مفادها أنّ ما نراه لم يكن موجوداً، ولذا لا بدّ من موجد. إنّ أساطير الخلق والتكوين تحاول الإجابة عن التفكير الفلسفي الذي يدفعنا للتساؤل عن ماهية الحياة وإدراك كنهها، وهي تقدّم لنا الأشياء والآلهة موجودة وفاعلة، ولكنّها تغفل الحديث عن المرحلة التي سبقت وجود الآلهة، وتكتفي بالقول:

بينما في الأعالي
لم تكن السماء قد سمّيت بعد
والأرض اليابسة في الأسفل
لم يكن أطلق عليها أيّ اسم
وحدهما أبسو الأول
والدهم
والأمّ تيامات
والدتهم جميعاً
كانا يمزجان مياههما.[2]

فأساطير الخلق والتكوين تتحدّث عن أصل الكون، وكيف ظهر هذا الكون إلى الوجود، يقول فراس السواح: "تتّخذ أساطير الخلق والتكوين مكان المركز والبؤرة في أيّ منظومة ميثولوجيّة، فهي التي تتحدّث عن أصل الكون.. وعن أصل الآلهة وأنسابها ومراتبها."[3]

١- عبد الرحمن العابو، التراجيدي في أساطير الشرق القديم، ص: 43-44.
٢- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 116، ج2.
٣- فراس السواح، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، ص: 10، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 2006.

1- أسطورة (عندما في الأعالي: نشيد الخلق البابليّ):

حظيت أسطورة الخلق (عندما في الأعالي أو نشيد الخلق البابليّ) بغنى خاص، كما تبوّأت في العبادة مركزاً عالياً، ففي مطلع كلّ عام كان الكاهن الأكبر لـ "الأيزاجيل" يلقيها من أولّها إلى آخرها، كيما يساعد الاستحضار المنتصر لخلق العالم"[1].

لقد وصلت إلينا أسطورة الخلق والتكوين مكتوبة على سبعة ألواح تتضمّن (900) سطر سجّل فيها مؤلّفها مجمل الأفكار، والمعتقدات الخاصة بخلق الكون، ويتلخص مضمون الأسطورة بما يأتي:

في البداية كانت الحياة الأولى، وكان الإله "أبسو" يشكّل مياه العمق العذبة، والإلهة "تيامات" تشكّل المياه المالحة، ومن اقتران المياه العذبة بالمالحة، ولد إلهان "أنو": السماء، و "كي" الأرض، ومن زواجهما ولد الإله "إنليل": الهواء، وهو الذي قرّر أن يباعد بين أبويه، وأن يظلّ في الوسط بينهما. فأبعد والده "أنو" إلى فوق ليشكل السماء، وأمّه إلى تحت لتشكل الأرض، وظلّ بينهما.

أنجب الإله "إنليل" إله القمر، كي يضيء الظلام الدامس، الذي بدوره أنجب "أوتو" إله الشمس، وعندما تكاثرت الآلهة وأصبح عددها كبيراً أزعجت الجدّ "أبسو" الذي لم يعد يستطيع الراحة فأراد القضاء عليهم، فنسج خطّة محكمة، وأطلع زوجته عليها، ولكنّ الأمّ وبدافع من عاطفتها لم توافق على الخطّة بل سرّبتها إلى الأبناء والأحفاد. اجتمع الأولاد واستطاعوا بمساعدة "إيّا" إله الحكمة، أن يوجدوا خطّة كانت نتيجتها التخلّص من الجد. بعد ذلك تزوج إله الحكمة الإلهة "دميكنا" وأنجب "مردوخ" الذي سيقع على عاتقه أمر إعادة النظام إلى الكون الذي عمّته الفوضى، وينجح "مردوخ" بمهمته بعد أن يخوض صراعات كثيرة ويستطيع القضاء على الآلهة "تيامات" وما تحمل من فوضى وشرّ، ويقوم بتنظيم الكون بعد أن يحصل على الألقاب الإلهيّة والصلاحيات الكاملة.

2- أسطورة (أنزو وسرقة ألواح القدر):

أمّا أسطورة "أنزو وسرقة ألواح القدر" فإنّها تتشابه في مضمونها تشابهاً كبيراً مع قصّة الخليقة، وهي تتحدّث عن الصراع بين آلهة الخير، وآلهة الشرّ أيضاً، فتبيّن أنّ غاية هذا الصراع هي القضاء على كلّ ما هو شرير وفوضوي، وانتصار قوى الخير والنظام.

تبدأ الأسطورة بالحديث عن أنّ الآلهة سمعت بولادة "أنزو" الشرير، فاستغربت الأمر، لذلك تشير على الإله "إيّا" أن يأخذه ويضعه في خدمته، لكن

١- رينيه لابات ورفاقه، سلسلة الأساطير السورية، ص: 40.

"أنزو" الشرير يراقب سيّده، ويحسده على ما هو عليه من نعم، وبسبب الحسد يقرّر التخلّص من سيّده، والاستيلاء على ألواح القدر والتاج الملكي، ليحصل على المعلومات التي تمنح الإله "إيّا" الحكمة، والمعرفة، والقوّة، والسلطة، وحين يقوم بتنفيذ ما قرّر تجزع الآلهة لسرقة الألواح التي وقعت بيد شرير. يمكن أن يؤدّي استخدامه لها إلى كارثة كونية، تجتمع الآلهة وتتشاور فتهتدي إلى حلّ، وهو أن يذهب أحد الآلهة فيقضي على "أنزو"، ويعيد الألواح، ولكنّ الآلهة التي ذهبت لمنازلة "أنزو" خافت وعادت، عند ذلك تختار الآلهة "ننورتا: مردوخ" الذي قضى على "أنزو" بمساعدة إله الحكمة، ويستعيد الألواح، ويعيدها إلى مركز العبادة، ويحصل "ننورتا" على الألقاب، والصلاحيّات الإلهيّة فيبدأ بتنظيم الكون، وإشاعة النظام بدلاً من الفوضى.

3- أسطورة (ولادة الآلهة ومدينة دنو):

وتتحدّث أسطورة "ولادة الآلهة ومدينة دونو"، عن ولادة الآلهة، وهي مكتوبة على لوحين، يشكلان قرابة 100 سطر، وتذكر أنّ هناك إلهين يملكان محراثاً، ومن ضربة المحراث في الأرض خُلق البحر، ومن الضربة الثانية خُلق إله الحيوانات، وبعد توالي عمليّة الخلق، وكثرة المخلوقات أنشئت مدينة "دونو"، لتسكن فيها هذه المخلوقات، وحين اكتملت عمليّة الخلق سادت الفوضى بدلاً من النظام، فاستولى الابن "أماكاندو" على الإمارة، وتزوج أخته، وأنجب أولاداً، هم الذين سيقومون فيما بعد برعاية الماشية وتربيتها، حين ذلك حلّ النظام بدل الفوضى، وقام "أماكاندو" بتنظيم كلّ أمور الكون، ووزّع الأدوار على كلّ منهم في هذه الحياة.

تلك هي الأسطورة التي تتحدث عن خلق المدن، والاستقرار، والتخصيب، والرعاية، وبداية الزراعة، وتشير للمرة الأولى إلى عادات كثيرة، كعادة دفن الموتى على سبيل المثال.

ثانياً: البطوليّ والصراع الكونيّ:

لقد رسم القدماء للإنسان صورة مغايرة للصورة التي اعتدنا أن نتخيّلها نحن، فقد توافق من حيث سماته العامة مع العالم الذي خلق، مع "الكوسموس": (النظام الكوني) إنّه العالم الأصغر (ميكروكوسموس) لم يدرك نفسه مستقلا عن

العالم الأكبر (ماكروكوسموس) وكما قال الفلكي المعاصر "كارل ساغان": "إنّ الإنسان كان دوماً خطّاً لحنياً في السمفونيّة الكونية للحياة."[١]

لكي ندرك نظرة البطوليّ (الإنسان) إلى الكون، "لابد لنا من أن نلقي نظرة عبر الميدان، لكي نستطيع إدراك ما يجري في بيتنا."[٢]

وفي واقع الحال فإنّ الحسّ الإنساني ينتمي إلى المادة الكونيّة التي هي من صلب العناصر الطبيعيّة، التي يتشكّل منها الكون، وإنّ تكوين الإنسان الماديّ هو الذي أعطاه هذه القيمة، فمن الآلهة التي خلقته استمدّ طاقة الحياة (عنصر روحي)، ومن الأمّ والأب أخذ مادة جسده ودمه؛ أي: إنّ الإنسان تشكّل من جسد فيزيائي يشبه المادة التي صنع الكون منها، ومن مادة روحيّة هي هبة الإله الخالق، هذا التكوين هو الذي يحكم سلوكه كلّه، في عالميه الميثولوجيّ والواقعي. لقد كان البطوليّ أكثر الناس التصاقاً بالكون، هو نفسه يشكّل انعكاساً لهذا الكون، فلذلك تجده يشارك في صنع الحياة لا في مواجهتها، في ترتيبها لا في الاصطدام معها. لقد بدت الحدود بالنسبة إلى البطولي بين ما هو غير إنسانيّ، وما هو إنسانيّ حدوداً متحركة وغير ثابتة، وكانت هذه السمة واحدة من سمات الإدراك الميثولوجيّ للعالم.[٣]

"فعندما تساءل من أنا وسط هذا الكون الكبير؟ كان جوابه: إنّه الكائن الذي يتميّز من الحيوان من ناحية، ويختلف عن الآلهة من ناحية أخرى"[٤].

لقد شكلّ وجود الإنسان دائماً إسقاطاً لذاته على الأشياء المحيطة به، وفي ظلّ إدراكه لهذا النظام الكونيّ الذي يحيط به، كان وجوده الدافع الأساسيّ الذي جعله يخاف على هذا العالم الذي يحيط به من أن يصيبه مكروه، ويخاف أن يتلف هذا العالم الذي خلقته الآلهة، من أجل ذلك كان دافعه الدائم، والملحّ، والواجب التضحية من أجله هو هذا الالتزام الصارم بمجموعة من القيم، والقواعد، والمحرمّات، بهدف ضبط نظام الحياة، وقد قدّم نفسه في مرحلة تالية من مراحل تاريخ الفكر بأنّه يريد أن ينشئ شيئاً لم ينشئه أحد من قبله.

وهنا تظهر الأذواق الجماليّة الإنسانيّة التي هي في نهاية المطاف ليست ميولاً فرديّة تتبدّى في مجالات حياتيّة مفردة ضيّقة، بل هي ميول اجتماعيّة تتبدّى على نطاق واسع في هذا أو ذاك من أنماط الحياة."[٥]

فالأساطير إذاً تشير إلى "الموقف الذي يتخذه الإنسان عند امتلاكه الوعي من المنزلة التي يحتلها في الكون."[١] لقد أدرك "رانك"، بحسب (راثفين)، "في

١- م. ف. ألبيديل، سحر الأساطير، ص: 262.
٢- راثفين، الأسطورة، ص: 13.
٣- م. ف. ألبيديل، سحر الأساطير، ص: 264.
٤- نبيلة إبراهيم، الأسطورة، ص: 40.
٥- ينظر: بوسبيلوف، الجمالي والفني، ص: 188.

هذا الكون الذي نعرفه لا يوجد تكرار حقيقي مطلقاً. إذ كل شيء في نشوء فعّال، إنما نحن نرى ما يشبه التكرار إذا لم نتمعن جيداً."[٢]

وهكذا هو الإنسان كان، ولا يزال مدفوعاً برغبة قويّة غايتها الحفاظ على هذا النظام الكوني الذي هو جزء منه، فحين سرق "أنزو" ألواح القدر، استشعر الإنسان والآلهة الخطر، واستنفر بكليّته، لأنّ المستولي على الألواح يمكن أن يعبث بالنظام الدقيق المحيط بالإنسان:

بينما كان إنليل يستحمّ في المياه المقدّسة
وقد خلع ثيابه ووضع تاجه على العرش
استولى (أنزو) على لوح الأقدار لنفسه
انتزع سلطة إنليل
طار أنزو محلقاً إلى البعيد
وتوارى في الخفاء[٣]

لقد استولى "أنزو" في غفلة من "إنليل": (إله الهواء) على لوحة الأقدار، لوحة السلطات كلّها التي تمكّن الآلهة من تسيير الكون، في هذه اللحظة تعطّل النظام الكوني، انتاب الرعب الآلهة لقد فقدوا سلطانهم، إنّ الموقف يستدعي وجود مخلّص يعيد الأمور إلى ما كانت عليه، ويمنع "أنزو" من إساءة استخدام الألواح. هذا المخلّص هو المحارب الشديد البأس المغامر المضحّي بنفسه "نينورتا" الذي راقب سلوك كلّ من حاول استعادة الألواح من الآلهة وفشله في تحقيق ذلك، فما كان منه إلا أن تسلّح بالرياح السبعة، والسهام المسمومة، مدفوعاً برغبة كبيرة في الحصول على الشهرة، إذا ما استطاع إعادة الألواح إلى موطنها الأصلي.

إنّ "نينورتا" البطل الذي يستطيع وفي نهاية المعارك الضارية التي يخوضها، ضد "أنزو" أن ينتصر على "أنزو" ويبتر جناحيه، ويستعيد لوحة الأقدار.. كان يجسّد في هذه اللحظة العظيمة انتصار النظام على الفوضى، لكي تظلّ الحياة مستمرة دون معوّقات:

بُغيةَ أَسْر أنزو المجنّح
اكتسحْ وخرّب الجبل وحقوله
اقطعْ رقبة هذا اللعين أنزو
سوف تعود الملكيّة إلى الإيكور
وتعود السلطات الإلهيّة إلى أبيك ووالدتك

١- مرسيا إلياد، صور رموز، تر: حسيب كاسوحة، ص: 42، ط1، وزارة الثقافة، دمشق، 1988.
٢- راثفين، الأسطورة، ص: 45.
٣- ستيفاني دالي، أساطير من بلاد النهرين، ص: 252.

عندها، سوف يكون لك محراب حتى في الإيكور
هكذا سوف تتمتّع تجاه الآلهة
بالمجد والقدرة الكليّة
لدى سماع البطل لحديث أمه
ملأت الشجاعة قلبه وكمحارب باسل
تقدّمْ نحو الجبل.[1]

وبعد أن تجري معارك طاحنة، ينتصر "نينورتا"، ويحصل على تقدير "إنليل":

الآلهة عرفوا
وفي قلب الجبل
أنك أطحت بأنزو
وبذلك دخلوا في حالة من الفرح والابتهاج.[2]

إنّ تشكيل نصّ أسطورة "أنزو وسرقة ألواح القدر" يشابه المضمون الفكري لـ "أسطورة الخلق"، فالبشر الذين:

أثاروا قلق (تيامات)
وحين أحدثوا الجلبة
وجعلوا داخل تيامات يضطرب
أزعجوا
قلب المسكن الإلهيّ

فتح "أبسو" فمه وقال:

تصرفاتهم تزعجني
أنا لا أرتاح نهاراً
وفي الليل لا أنام
أريد إفناءهم
وإلغاء نشاطهم.[3]

وهنا يقرّر البشر، وبمساعدة أمّهم القضاء على "أبسو".. لكن "أبسو" وبعد مشاورات مع الآلهة، يبحث عن البطل الذي يستطيع تخليصه من الذين يريدون

١- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 335، ج2.
٢- المصدر السابق، ص: 340.
٣- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 120، ج2.

obeikandl.com

التخلّص منه، والعبث بالكون، هذا البطل هو "مردوخ" الذي طالب بالمكافأة، إذا ما استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها:

إذا كان عليَ أنا
الانتقام لكم
والإطاحة بتيامات
لإنقاذكم
امنحوني سلطة فائقة
وأقرّوا وفي مكان اجتماعكم
أن أفوّض بتقدير المصائر.[1]

وبعد أن منحته الآلهة الصلاحيّات كلّها، خاض البطل معركته التي هي معركة الإنسان، وانتصر على الفوضى:

وعندما قام القائد
بالقضاء على تيامات
تفكّكت فرقها
وتشتّت أركان حربها
ونصراؤها
كرّوا متراجعين
وولّوا أدبارهم
لإنقاذ حياتهم.[2]

إنّ مهمّة البطوليّ الأساسيّة في هذا الكون تمثّلت أساساً في الحفاظ على النظام الضابط لهذا الفضاء الذي يعيش فيه، لأنّ أيّ خلل فيه سيصيبه شخصيّاً، وسيدمر حياته، وهو في الأسطورة يطلب الثمن، بعد أن ينجز كلّ ما هو مطلوب منه، وهو إذ يقوم بالأفعال الجليلة والجميلة يهدف في الوقت نفسه إلى تمييز نفسه من الآخرين، وإبراز قدراته الذاتيّة التي تمكّنه من الاختلاف الإيجابيّ عن الآخرين.

إنّ المؤلف الذي صاغ هذه الشخصيّة استطاع تسجيل وعيها الجماليّ، وذلك لا باستطاعته الانتقال بها من مستوى تجسيد شكلها الفنيّ، وحسب، ولكن بالانتقال

١- المصدر السابق، ص: 144.
٢- ديوان الأساطير، ص: 166، ك2

obeikandi.com

بها إلى مستوى الإحساس بالمضامين المفعمة بحقائق الوجود."[1] ومن هنا كانت شخصيّة البطل حالمة رومانتيكية، لديها قدرة هائلة على صنع الأحلام، ومحاولة تفسيرها، والسعي إلى تحقيقها.

ثالثاً: خصائص عامّة للبطوليّ:

يمكن تقسيم الخصائص العامّة للبطوليّ إلى قسمين رئيسين: الخصائص الماديّة، والخصائص المعنويّة، وفيما يأتي توضيح كلّ:

1- خصائص ماديّة:

إنّ مؤلّف النصّ "لم يكن يسعى في تصويره للفعل البطوليّ إلى تجسيد تجربته الفرديّة، بل إلى تجسيد الصورة المثاليّة للبطولة كما ارتسمت في الوعي الجماليّ الجمعي."[2]

ولأنّ مؤلّف النصّ كان تحت تأثير إيحاء واحد، هو محاولة بثّ الحياة في النصّ من أجلّ استمرار تأثير هذا النصّ في وعي الناس، كان عليه أن يقدّم لهم البطل في أكمل خلقة، وأبهى صورة، وأعظم قدرة، لذلك قام برسم صورة مثاليّة للبطل كما يتصورها الخيال الجماليّ الجمعيّ للناس الذين يتوجّه خطاب النصّ إليهم، فالبطل "مردوخ" مثلاً:

في قلب الأبسو المقدّس
تمّت ولادة مردوك (مردوخ)
مولّده.... إيّا أبوه
مولّدته... أمّه دامكينا
لم يرضع قط
سوى الأثداء الإلهيّة
والمرضعة التي ربّته
ملأته بحيويّة فائقة
طبيعته كانت طافحة
ونظرته ساطعة
كان رجلاً كاملاً منذ ولادته
وبكامل قوّته منذ البداية

١- ينظر: دراسة: ماهر عبد المحسن حسن، مفهوم الوعي الجمالي عند جادامر، ص: 7، ط1، دار التنوير، بيروت، 2009.

٢- فؤاد المرعي، الوعي الجمالي عند العرب، ص: 51، ط1، دار الأبجدية، دمشق، 1989.

إنّه أكثر روعة (من بقيّة الآلهة)
ويفوقهم في كلّ شيء
تكوينه لا مثيل له
ومدهش شكلُه
من المحال تصوُّرُه.[1]

إنّه كامل الخلقة، وهو ما يجعل الناس تنظر إليه بإعجاب، وفخار، وإجلال. ذلك أنّ سموّ المثال الجماليّ ينبع من سموّ الاندفاعات الروحيّة التي تشكل العنصر الأوّل من قيمة المثال الجماليّ، الجمعيّ البطوليّ، على رأي "هيجل".[2] فالشخصيّة البطوليّة لا يمكن أن تكون معزولة عن الكمال الجسدي والأخلاقي، وهي لا تستطيع عزل نفسها عن قوانين المجتمع الجماليّة والأخلاقيّة، ومن هنا كان تجسيد البطوليّ بصورته الكاملة يعطي الجماعة إحساساً بالراحة تنبع من إيمانها العميق بأنّ من يمتلك هذه الصفات مؤهل للدفاع عنها، وقوّته الجسديّة تمنحه القدرة على القيام بما هو مطلوب منه، فـ:

بعد أن خلق جلجامش وأحسن الإله العظيم خلقه
حباه شمش السماويّ بالحسن وخصه أدد بالبطولة
جعل الآلهة العظام صورة جلجامش تامة كاملة
كان طوله أحد عشر ذراعاً
وعرض صدره تسعة أشبار
ثلثاه إله وثلثه الآخر بشر
وهيئة جسمه مخيفة كالثور الوحشي
هذا راعينا القوي
الكامل الجمال والحكمة.[3]

لقد وهبت الآلهة البطل جسداً كاملاً، وجمالاً مطلقاً، وشجاعة فائقة تفوق غيره من البشر، هذه الصفات التي جعلت البطل يقف في المقدمة، لأنّ الناس رأت النموذج الذي تؤمن به، وتحبّه فآمنت به، لأنّ الإيمان والمحبّة هما اللذان

١- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 124، ك2.
٢- أنيكست الدراما عند هيجل، ص: 51.
٣- طه باقر، ملحمة جلجامش، ص: 78.

يدفعان البشر إلى فعل أيّ شيء من أجل المحبوب، إنّ النصّ العظيم لا يمكننا أن نفهمه عبر القراءة المتكررة، والمكثفة وحسب، ولكن علينا أن نظلّ مدة تحت تأثير النصّ، نرى بعينه، ونسمع بأذنه، ونتكلم بلسانه، بتعبير آخر نحن مطالبون بالتوحّد مع النص كي نصبح أكثر التصاقاً به، وأكثر قدرة على فك رموزه.

لذا كان علينا وعلى الدوام الإيمان بأنّ "كلّ حدث مهمّ في البشرية، يتمّ في أوانه، لا قبله ولا بعده، وكلّ إنسان عظيم ينجز قضيّة زمانه، ويحل المسائل المعاصرة له، ويعبّر بنشاط عن روح العصر الذي ولد ونشأ فيه"[1] وهذا هو فحوى تصوير البطل في أحسن صورة، أيّ: جعلنا نرى فيه الكمال الجماليّ الشكليّ الذي يشكّل الصورة الخارجيّة التي يتشكل منها البطوليّ.

2- خصائص معنويّة:

لقد كان من الضروريّ بعد أن تمّت صياغة البطوليّ الشكليّة الخارجيّة على أنّه كامل الخلقة، الالتفات إلى منحه صفات معنويّة، تكمل رسم الصورة الكاملة للبطل، لذا فقد تمّ تصويره على أنّه ينتمي إلى أصول مختلفة عن أصولنا، إنّه من جنس الآلهة، فنسبه يمنحه صفة تميّزه من الآخرين:

إنّه البطل سليل أوروك
والثور النطّاح
نسل لوجال بندا إنّه جلجامش المكتمل القوّة
ابن البقرة الجليلة رمات ننس[2]

أمّا "مردوخ" فإنّ:

إيّا أبوه إله الحكمة
أمه دامكينا
في حرم الأقدار
تمّت ولادة الإله الأكثر ذكاء.[3]

١- بيلنسكي، نصوص مختارة، ص: 92.
٢- طه باقر، ملحمة جلجامش، ص: 77.
٣- الشواف، وأدونيس، ديوان الأساطير، ص: 123-124، ج2.

هذا البطل الذي يمتلك نسباً عظيماً، هو ما يمكن للناس الآخرين أن يعتمدوا عليه، فحين يحاول أحد ما الإساءة إلى هذا النظام الكونيّ، وحين يستشعر الناس بالخطر يكون هو الملاذ، لأنّ البطوليّ "مردوخ" يواجه أعتى أنواع الخطر، وأقوى عدوّ استطاع أن يخيف الآلهة والبشر، ولكنّه يعد القوّة لمواجهته، تحقيقاً لرغبات الآلهة والناس معاً، الأمر ذاته ينطبق على "جلجامش" البطل القلق الذي يقرّر تخليص المدينة من مشاعر الخوف الذي كان يسكن ناس المدينة، خوفاً من "خمبابا" حارس الغابة، أو الرجل العقرب أو..

3- خصائص سلوكيّة:

ولتحقيق رغبات الناس كان على البطوليّ التحليّ بالقدرة على المغامرة، والسير في طرق وعرة، وعدم التردد، وركوب طريق مجهولة هرب منها الآخرون إلى النهاية.

إنّ قرار مواجهة "مردوخ" لـ "تيامات"، بعد أن هزمت أكثر من إله، يملك قدرات خارقة، كان قراراً جريئاً. فالبطل المحمي من الآلهة، والمتحمّس نتيجة ثقته بنفسه، والراغب في صياغة حياة جديدة لشعبه، قادر على اتخاذ القرار الصعب، والمضيّ قدماً في مغامرته؛ لقد طلب "جلجامش" من صديقه "إنكيدو" السير إلى الغابة، ومواجهة أخطارها، والعودة منها إلى مدينته منتصراً قاطعاً رأس الشرّ الذي بثّ الذعر في نفوس الناس، على الرغم من أنّ شيوخ المدينة طلبوا منه عدم التهوّر والذهاب إلى طريق لا عودة منه:

اسمعوا يا شيوخ أوروك ذات الأسواق
أريد أنا جلجامش أن أرى من يتحدّثون عنه
ذلك الذي ملأ اسمه البلدان بالرعب
فأجاب شيب أوروك
يا جلجامش أنت ما زلت شاباً وقد حملك قلبك مدى بعيداً
وأنت لا تعرف عاقبة ما أنت مقدم عليه.[1]

لكنّ البطل أصرّ على المضيّ في طريقه، والتخلّص من رمز الخوف والشرّ، فخاطب صديقه "إنكيدو":

١- طه باقر، ملحمة جلجامش، ص: 100.

كيف سأجيبهم يا صاحبي
أأجيبهم بأنّني أخاف من خمبابا
وسأظل ملازماً بيتي طوال أيّامي الباقية.[1]

وحين يدرك شيوخ "أوروك" إصرار البطل على تحقيق ما عزم عليه، وأنّه أخذ قراراً لا عودة عنه، كان عليهم أن يتوجّهوا إلى الآلهة بالدعاء له عسى أن تحميه الآلهة، وتنصره، وتعيده إلى أهله ووطنه سالماً:

عسى أن ينصرك إلهك الحامي
وعساه يرجعك سالماً في طريق عودتك إلى بلدك
ويعيدك سالماً إلى ميناء أوروك.[2]

إنّ موقف "جلجامش" يكاد يتطابق مع موقف "مردوخ"، فحين ألمَّ الخطر بالآلهة، وأدرك الناس والآلهة عظم هذا الخطر، وكان البطوليّ المغامر والقادر على التضحية بنفسه من أجل الآخرين يعرض خدماته على الآلهة:

يا أبتي لا تغلق شفتيك
بل اجعلهما تنفتحان
أريد الذهاب لتحقيق كل ما ترغب
أيّ ذَكَرٍ قام حتى الآن
بخوض القتال من أجلك.[3]

و "مردوخ" يطمئن أباه بأنّ النصر حليفه، وأنّ عليه الهدوء، لأنّه سيقوم بالقضاء على "تيامات" وتخليص الآلهة من شرّها، وإنهاء الفوضى، واستعادة النظام:

أي أبي
قريباً سوف تدوس شخصياً برجليك
رقبة تيامات.[4]

أمام هذا الموقف الواثق ما كان من الآلهة إلا أن تفعل ما فعله شيوخ "أوروك"، ألا وهو الدعاء للبطل بالنصر:

١- المصدر السابق، ص: 101.
٢- المصدر السابق، ص: 101.
٣- ديوان الأساطير، ص 143، ج2.
٤- المصدر السابق، ص: 143.

إذاً يا ولدي
التام الحكمة
اجعل تيامات
تهدأ بواسطة سحرك الرفيع.[1]

في هذين المشهدين تتجلّى السمة الأجمل للبطوليّ، المتمثلة بتلك القدرة الفكرية، والوعي الفرديّ الذاتيّ، الذي دفعه إلى أخذ خياره بنفسه بعد تأمّل وتفكير، معتمداً على قدرته الذاتيّة، وعلى قوّته التي منحته الآلهة إيّاها، وعلى الدافع الأخلاقي الذي نمّى فيه حبّ المغامرة، لأنّه وعلى الرغم من إحساسه الفرديّ بالتميّز، يطمح أيضاً إلى الحصول على المكاسب الشخصيّة عند تحقيق ما ذهب من أجله، لقد طلب "مردوخ" إلى الآلهة:

امنحوني سلطة فائقة
أن أفوّض بتقرير المصائر
أن لا يبدّل شيء
في ما سوف أنظمه بنفسي.[2]

إنّ هذه الصفات السلوكية المتمثلة بالتضحية بالذات، والرغبة في المغامرة، والاستكشاف، إضافة إلى الصدق والشهامة، والتأمّلات الفكرية، منحته القدرة على الاختيار، وإن مجموعة الخصائص المعنوية والسلوكية هي التي جعلت البطوليّ متميزاً عن غيره من البشر العاديين.

١- المصدر السابق، ص: 143.
٢- ديوان الأساطير، ص: 144، ج2.